الفصل الثاني

في المقدّمات التي أدّت إلى القول « بحدّ الردة »

- القرآن سبيل التجديد ومضمونه
- بالمنهج العلمي ـ لا بالتأويلات والتعديلات الجزئيّة ـ يتحقق التجديد
- ضرورة تجاوز الأمّة أزمتها الفكريّة
- بين المطلق والنسبي والمصادر التشريعيّة
- أين مكمن الخطر على فهم الإسلام الآن؟!

obeikandl.com

القرآن سبيل التجديد ومضمونه

أتذكّر ـ الآن ـ وأنا أقدم هذه الدراسة ـ أنني حين كنت طالب علم مبتدئًا كان شيخنا عبد العزيز السامرائي ـ تغمده الله برحمته ـ يردد على مسامعنا الحديث القائل: «**يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء**»[1] وكنت في تلك الفترة سعيدًا جدًّا بالاستماع لهذا الحديث وأمثاله نحو قوله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»[2] إلى أحاديث أخرى كثيرة كان الشيخ يرددها علينا كثيرًا ترغيبًا في طلب العلم. وكان ترغيبًا شديدًا في تلك المرحلة من العمر، وكنت أتساءل في بعض الأحيان: كيف يوزن مداد العلماء بدم الشهداء وهم جالسون في مدارسهم ومساجدهم يتدارسون العلم بهدوء، وقد تجري عليهم بعض الأوقاف، ويحصلون على مزايا مختلفة، فأين هذه الحياة الهنيّة بين الكتاب والقلم والكاغد[3] من حياة مجاهد يقتحم المهالك فيَقتل ويُقتل؟

وكبرتُ وما انقطع تساؤلي هذا!! لكنّني بعد أن جاوزت الخمسين من عمري بدأت أتبيّن معالم الجواب عن ذلك التساؤل: فقد بدأت مرحلة مجاهدة الناس بالقرآن المجيد من خلال برنامج أسلمة المعرفة، وبدأ البرنامج المذكور يفرض علينا النظر في كليّات الإسلام ومقاصد شريعته، وغايات منهاجه وخصائص رسالته، أكثر من النظر في جزئيّات الفقه، وتفاصيل المعارف النقليّة؛ كما بدأت معها مرحلة التأمّل في وضع

---

(١) قال ابن عبد البر: من حديث أبي الدرداء، راجع: **تخريج العراقي على إحياء علوم الدين**، القاهرة: دار الشعب، ١٩٨١م، ١/ ١٠.

(٢) الحديث رقم ٣٦٩٩ في صحيح البخاري، كتاب الذكر والدعاء، ورقم ٢٦٤٦ في صحيح الترمذي كتاب العلم، ١٩٨٤.

(٣) القرطاس والورق.

أمّتنا المسلمة المخرَجة للناس نموذجًا ومثالاً، والتحدّيات التي تواجهها من تراثها وواقعها التاريخيّ، وتراث الناس اليوم وواقعهم الراهن، وتكونت لديّ رؤية معرفيّة ومنهجيّة حول كثير من هذه الأمور التي واجهتها في أشكال مختلفة، بعضها في شكل تحديات وبعضها الآخر في شكل أسئلة. ثم بدأت مرحلة البحث عن مخرج من هذه الأزمات، ومنقذ من هذه الفتن، لا على مستوى التعبّد الشخصي والرغبة في تحقيق نوع من الخلاص الفرديّ بسلوك طريق يوصلني ـ فردًا ـ إلى الجنة بلطفه ـ تعالى ـ وفضله، بل على مستوى إخراج الأمة المخرجة إلى الناس نموذجاً ومثالاً ووسطاً من أزماتها وواقعها السيئ، مع قناعة بأنّ أول خطوة في طريق الإصلاح وإخراج هذه الأمة من أزماتها هي خطوة فكريّة لا بد منها لإصلاح مناهج التفكير لدى هذه الأمة التي اغتالت قدراتها وطاقاتها مجموعةٌ من الأفكار السامّة والمميتة: منها الجبريّة والتواكل، وعدم فهم وظائف الأسباب، والعجز عن إدراك طبائع السنن الإلهيّة، وغيرها؛ وتضافرت مع تلك الأفكار السامَّة المميتة أفكار ميتة بطبيعتها لا يمكن أن تشكل دافعيّة حضاريّة، كما لا يمكن أن تبني فعالية أو تساعد على تحقيق شهود حضاريّ في أي مستوى من المستويات؛ بل إنّها كفيلة بالقضاء على ما قد يكون موجودًا من ذلك.

في إطار البحث عن جذور تلك الأفكار السامة المميتة والأفكار الميتة والمريضة اتصلت بي السبل مع مجموعة هائلة من التراكمات المعرفيّة التي حفل تراثنا النقليّ والعقليّ بها؛ وبدأت تتضح لي رؤية في مسائل كثيرة قد قال فيها بعض الأولين أقوالهم وظنّوا أنّهم قد فرغوا منها، ونفضوا أيديهم من تفاصيلها، وأصبح اللاحقون يتناقلونها، وقد لا يبذلون جهدًا إلا في تحقيقها وتصحيحها وإشاعتها وتناقلها، وشعارهم في ذلك «ما ترك السالف للخالف شيئًا» والإسلام يتحمل تبعاتها ويدفع الثمن غاليًا بتمرُّد كثير من أبنائه عليه، وتجاوزه إلى غيره من متهافت الأفكار وبقايا الأيديولوچيات وفضلات المبادئ.

بالمنهج العلميّ لا بالتأويلات والتعديلات الجزئيّة يتحقق التجديد

قد سبق لي أن كتبت مقدمة ضافية لكتاب الصديق الأستاذ راشد الغنوشي في

«حقوق المواطنة» حاولت أن أبين فيها أن الجوانب المختلفة للمشروع العمراني الإسلامي المعاصر ستظل تتردد بين مأزق وآخر حتى تتبين لقادة الرأي من المسلمين جملة من القضايا المهمة والخطيرة التي حفل بها تراثنا، وتتم تنقيته بعد ذلك منها. وأنه لن تغني عن قيادات هذا المشروع تلك الاجتهادات الجزئيّة في المسائل والقضايا التي يعارضهم خصومهم بها، أو يثيرونها في وجوههم، ولا حلول المقاربات والمقارنات والتأويلات التوفيقيّة.

فلن يخدم الإسلام كثيرًا أن يجتهد من يجتهد لينتهي إلى التنازل عن مذاهب فقهاء الجمهور التي تقسم المواطنين في دار الإسلام إلى: مسلمين يعيشون في دار الإسلام بأمان الإسلام، وذميّين يعيشون في ديار الإسلام بأمان المسلمين، ليأخذ بمفهوم المواطنة المعاصر بكل ما قد يستدعيه من قضايا معاصرة[1] وذلك لإفساح المجال أمام العقل المسلم ليتبنَّى مفهوم المواطنة الذي ولد في إطار الدولة القوميّة الغربيَّة الحديثة وصدّره الغرب جاهزًا إلينا، وبدأ يفرض نفسه علينا، وصرنا نشرعِنُ له.

ولن يعالج مشاكل الأمة المستعصية أن يجتهد من يجتهد ليأخذ بمفهوم الديمقراطيّة بكل تداعياتها وبجذورها اللّيبراليّة ـ أيضًا ـ دون تصحيح لمنظومة الأفكار الموروثة التي أدت إلى تفشي ظاهرة الفرديّة والطغيان والاستبداد في أمتنا، لا في الحاضر فقط، بل في الماضي كذلك، والله أعلم إلى أي مدى سوف تستمر في تدمير أو مصادرة مستقبلنا[2].

---

(١) راجع: مقدمتنا لكتاب الأستاذ الشيخ راشد الغنوشي، **حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م، ومن المفيد الاطلاع على كتابه: **الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م.

(٢) صدر للصديق الأستاذ الأديب الشاعر زيد بن علي الوزير كتاب قيِّم في الفردية: **بحث في أزمة الفقه الفردي السياسي عند المسلمين**، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني، ٢٠٠٠م. وأعتبر هذا الكتاب امتدادًا طبيعيًّا لكتاب **طبائع الاستبداد** للكواكبي، طبع طهران، ١٩٨٥م، يأتي بعد ما يزيد عن مائة عام على صدور كتاب الكواكبي، وكتاب النائيني **تنبيه الأمة** ليجد طبائع الاستبداد لا تزال كما هي، والفردية أكثر تفشيًا وانتشارًا، والأمة في نوم أعمق، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ونرجو أن لا يفهم مما ذكرنا أننا نرفض ما يسمَّى «بالديمقراطيَّة» سواء أرادوا بها الفلسفة الكامنة أو الإجراءات أو مؤسَّسات «المجتمع المدني» أو مجرد مغادرة مستنقع الدكتاتوريّة الذي تتمرغ الأقطار المسلمة في أوحاله منذ أمد طويل، وهي سر تخلفها ومصدر هزائمها المستمرة، بل إنّنا نحاول أن نؤكد على ضرورة وضع إستراتيجية للإصلاح والتجديد لا تقوم على =

كذلك لن يغني عن المسلمين شيء أن يأخذوا بمفهوم التعدُّدية بكل أنواعها قبل تصحيح تلك المنظومة الفكرية التي أدت إلى ذلك التعصُّب البغيض، والعودة إلى بدائيَّة نفي الآخر التي أنقذنا الإسلام منها، ورفض التعايش مع المخالف أيًّا كان حتى لو كان الاختلاف معه في بعض الفروع.

إنّه لم يعد من الممكن معالجة مشاكل المسلمين بالأخذ بأساليب المقاربة أو المقارنة أو التأويل أو التعديل الجزئيّ حتى لو كان ذلك ممكنًا على المستوى النظريّ، فإن هذا النوع من الجهود الجزئيّة لن يؤدي إلى حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وإن الاستمرار في هذا الأسلوب سوف يؤدي بأصحاب المشاريع السياسية ـ من الإسلاميين خاصةً ـ إلى مآزق قد لا تختلف عن مآزق الآخرين؛ فإنهم إن استمروا في عمليات التعديل الجزئيّ المتتابع في القضايا الفقهيّة الموروثة فسوف يكتشفون أنّهم قد أصبحوا في إطار نظام كبقيّة النظم، وعلاقته بالإسلام قد لا تتجاوز علاقة الاشتراكيّين والليبراليّين بالديمقراطيّة والحريّة وبقيّة الشعارات التي يرفعونها في فترات النضال من أجل السلطة، حتى إذا بلغوها أعادوا تفسيرها وقراءتها، وتقييد مطلقها، وتفصيل مجملها، بشكل يسمح لديمقراطيّتهم وحريّتهم بفتح أبواب السجون والمعتقلات على مصاريعها، ومصادرة الحريّات على تعددها، وممارسة كل أنواع الاستلاب والامتهان والاضطهاد والتعذيب للإنسان، كما فعل الشيوعيون والبعثيون، وكثير من دعاة الليبراليّة والتقدم عندما حكموا.

والإسلاميون قبل غيرهم مطالبون بأن ينزّهوا أنفسهم، وأن يحتاطوا لئلا يقعوا في مثل هذا النوع من الممارسات. وما كانت غاية الإسلام يومًا أن يسلّط بعض الناس على بعض، بل غايته أن تتلى على الناس آيات الله ويُعلّموا الكتاب والحكمة، ليَطّهروا وتزكو نفوسهم ويُحرَّروا من نزعات الطغيان، ويتجاوزوا نزغات الشيطان، ويكونوا معمِّرين في الأرض، وتتحقّق عبادتهم وعبوديّتهم لله وحده لا شريك له.

= ردود الأفعال والعفويّة والارتجال، للإجابة عن أسئلة يفرضها الآخرون علينا وفقًا لإستراتيجيَّتهم وأهدافهم، فذلك لن يخدم حالة الإصلاح والتجديد عندنا، فلا بد أن نضع بأنفسنا منهجنا في الإصلاح، وإستراتيجيتنا لإحداث حالة التغيير.

ضرورة تجاوز الأمّة أزمتها الفكريّة

إنّ حل هذه المشكلات ـ حلاً إسلاميًّا جذريًّا ـ يستدعي خروج المسلمين من أزماتهم الفكريّة الموروثة والمعاصرة، وإعادة بناء وتشكيل العقل المسلم، بحيث يعود عقلاً مبدعًا مجتهدًا برهانيًّا كما كان عندما صاغه صاحب الرسالة ﷺ بالقرآن المجيد يصدر عنه وإليه يعود، وإلى رسول الله ﷺ يَردّ الأمر وإليه يُرجعه.

وحين يتم استمداد مرجعيّة الوحي المقروء، المتعبَّد بتلاوته، المتحدّي بأقصر سورة من سوره، ومرجعيّة النبوة الخاتمة في تبليغه وتعليمه وتطبيقه وتفسيره وبيانه بكل طرق البيان، يستطيع العقل المسلم أن يكتشف خصائص الإسلام العامة ومقاصده العليا الحاكمة، وفي قمّتها ومقدمتها: «التوحيد، التزكية، العمران». ثم تأتي بقية المقاصد الشرعيّة والقيم الإسلاميّة مثل العدل والحريّة والأمانة والمساواة، وتحرير الإنسانيّة وإخراجها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ـ وحده ـ ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. وكذلك اكتشاف خصائص الإسلام، وصفات أمّته، ومنها:

أولاً: عالميّة الإسلام وكونيّته، وعموم رسالته وشمولها في الإنسان والزمان والمكان، وما تتطلبه هذه العمليّة من شروط، في مقدّمتها السعة والمرونة والانفتاح على سائر الأنساق الحضاريّة والثقافيّة في العالم، والتداخل معها، والتصديق عليها، واستيعابها وتجاوزها إلى الأفضل دائمًا بعد ترقيتها.

ثانيًا: حاكميّة وهيمنة كتاب الله ـ تعالى ـ على كل ما عداه، فهو الحكم والمرجع والمصدر المنشئ للأحكام وحده، ولكل تصورات المسلم وأفكاره ومواقفه ومنطلقاته.

ثالثًا: شرعة تخفيف ورحمة، ناسخة لكل ما سبقها من شرائع الإصر والأغلال ومهيمنة عليها.

رابعًا: نبوة خاتمة تمثل رسالات الأنبياء كافّة، وتشتمل على الهدى كلّه، فلم تعد البشريّة بحاجة بعدها إلى نبيٍّ مرسل أو وحي يوحى.

خامسًا: أمّة مخرجة للناس نموذجًا ومثالاً، ومكوَّنة بحيث تكون قادرة على استقطاب البشريّة وقيادتها نحو الهدى والحق.

وهكذا أخرج الله هذه الأمة المسلمة للناس في مبتدأ أمرها بحيث لا تحتاج بعد ما ذكر إلا إلى علماء ربانيّين ومجتهدين قادرين، يجدّدون لها فهم دينها، وينزلون آيات ربها على واقعها، أو ينزلون الواقع على قيم الوحي العليا الحاكمة: «التوحيد، التزكية، العمران» مهما كانت متغيّراته التاريخيّة والاجتماعيّة، ويصوِّبون فهمها له بما ينفونه عن حقيقة الدين من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويلات الجاهلين في كل عصر ومَصْر، ويعرفون كيف يربطون الناس بالكتاب الكريم والسنة المطهرة في كل عصر ومَصْر، ويردونهم إلى كلّ منهما ردًّا جميلاً كلما طال عليهم الأمد وقست منهم القلوب.

بين المطلق والنسبيّ والمصادر التشريعية

لقد خُتمت النبوة ما في ذلك شك عند أيّ مؤمن بالنبوة، عدا القاديانيّة وأولئك الذين لم يعترفوا بخاتم النبيّين وظلوا ينتظرون نبيًّا خاتمًا يتمثَّل بالمسيح عند النصارى، والمسايا عند اليهود، وبقي القرآن مطلقًا مستمرًا في إطلاقه مع صيرورة الزمان ومتغيِّرات المكان وتعاقب القرون والأجيال من بني الإنسان؛ ليعطي القرآن الكريم الإسلام آفاقه المتجدّدة بتغاير العصور، مؤصِّلاً لعقيدة الإسلام الثابتة، مبيِّنًا لقواعد شريعته. فهو الدين الإلهيّ الذي أمر الله البشريّة أن تدين به منذ الإيحاء إلى أول نبيٍّ حتى إرسال خاتم النبيّين، ولكن بمفهوم شامل عالميٍّ عام، وبفهم متجدّد دائم التجدّد، ومستمر لكتاب الله ـ جل شأنه ـ الخالد المطلق، ولسيرة وسنة رسول الله ﷺ التي تمثِّل بمجموعها منهجًا للتلاوة حق التلاوة والاتّباع، ومثالاً للفهم والتأسّي والاقتداء، لا التقليد الحرفيّ السطحيّ. وإنّ الإسلام بقواعده الأخيرة التي اشتمل عليها القرآن هو دين الله الذي لا يقبل الله من أحد من عباده غيرَه، وهذا يقتضي هيمنة القرآن العظيم هيمنة دائمة مستمرة على كل ما عداه؛ إذ لا يمكن لفهم بشريّ لأهل أيّ عصر من

العصور أن يحيط به ويهيمن عليه ويضع مدلولاته في قوالب نهائيّة لا تسمح بأيّ فهم آخر، وإلا لفقد القرآن المجيد الإطلاق وتحول إلى نصٍّ نسبي في زمانه ومكانه، أو تاريخيّته تُمكن الهيمنة على معانيه بالتفسير والتأويل الإنسانيّ الخاضع لمتغيِّرات الزمان والمكان والإنسان والحوادث والأعراف والثقافات والتقاليد.

لهذا لم يقيِّد رسول الله ﷺ معاني الكتاب المطلق بتفسير نهائيٍّ من عنده[1]، بل مثَّل باتباعه للقرآن وتعليمه للناس وبسنّته وسيرته ما اشتمل عليه الكتاب وأحكامه بشكل يوضح منهجيّة التأسي والاتباع اللَّذين أمر الله الناس بهما، وهذا فيما يتعلق بآيات الأحكام التي لا تتجاوز على أعلى تقدير نسبة واحد من اثني عشر من آيات الكتاب الكريم، أما الباقي فجلُّه آيات مطلقة تستوعب الأزمنة ـ كلَّها ـ وكذلك الأمكنة بحيث يستطيع أهل كل عصر أن يستفيدوا من معانيها بما ييسّره الله لهم، من مكنونها الذي يتكشّف فيما إذا تدبروا هذا القرآن الميسَّر للذكر. فالسنّة النبويّة المطهَّرة تمثِّل ـ في غير جوانب الأحكام والبيان الضروري والمباشر لآيات الكتاب ـ وبجانبها العمليّ خاصّةً، تطبيقًا يمثّل أعلى مراتب الفهم والتطبيق الدقيق. وفي جانبها التقريريّ، وفي جانبها القوليّ، تمثّل أدق أنواع البيان لآيات الكتاب الكريم بعد بيان القرآن لنفسه، لتقدم السنّة ـ بمجموعها ـ منهجية التأسي برسول الله ﷺ.

وعلينا أن ندرك الفروق الكبيرة بين التأسّي والاتّباع والاقتداء، والتقليد. فالتأسي

---

(١) لم يقم عليه الصلاة والسلام بتأليف تفسير بالمعنى الاصطلاحيّ للتفسير ـ كما ذهب إلى ذلك بعضهم ـ عدا آيات قليلة علّمه تفسيرها جبريل ـ عليه السلام ـ وفيما عدا ذلك فإن رسول الله ﷺ ترك للناس مع كتاب الله سنته وسيرته، وللسنَّة مفهومها وللتفسير مفهومه، ولو أنَّ رسول الله ﷺ فسَّر آيات الكتاب الكريم كلها، وبالمفهوم الاصطلاحيّ للتفسير، لما جاز لأحد أن يفسر القرآن المجيد بما لم يفسره به رسول الله ﷺ ولوقع كل أولئك المفسرين، ومنهم الصحابة والتابعون الذين أثرت عنهم مأثورات كثيرة في التفسير، تحت طائلة الوعيد النبوي، وما فائدة الأمر بالتدبُّر إذا كان من أُنزل عليه القرآن العظيم قد فسَّره كله، وكيف سطَّر الفقهاء من أهل الحديث وأهل الرأي كل تلك الآراء والمذاهب الاجتهاديّة التي جعلت بعضهم يستنبط من الآية الواحدة عشرات المسائل، بل لقد كان بعض العلماء يستنبط من الآية الواحدة مئات المسائل. إنّ الفرق كبير جدًّا بين السنّة والتفسير، فإن سنّة رسول الله ﷺ هي مجموع أقواله وأفعاله وتقريراته وهي تطبيقات وبيان للقرآن، لكنّها لا تسمى تفسيرًا بمعناه الاصطلاحيّ، والله أعلم.

والاتّباع والاقتداء ـ كلّها ـ أمور تقوم على حجيّة الدليل، والعلم به، وفهمه وإدراكه. أما التقليد فهو محاكاة ومتابعة وقبول ذلك دون نظر في دليل.

وكل تراثنا بعد ذلك يندرج أمام إطلاقيّة القرآن في دائرة النسبيّ الذي تحيط به المؤثّرات الزمانيّة والمكانيّة وثقافة المجتهد والمفكّر الخاصّة، وتؤثّر عليه بيئته الاجتماعيَّة والفكريّة، وحين ندرك ذلك إدراكًا موضوعيًّا، مع تفهُّمنا في الوقت ذاته لخصائص الرسالة الإسلاميّة الخالدة الخاتمة بعقليّة كليّة قادرة على فهم القيم الحاكمة والمقاصد الشرعيّة والغايات الدينيّة، فإنّنا ـ آنذاك ـ نكون قادرين على اكتشاف الكثير والكثير من مواقع الضعف في تراثنا، بجانب الكثير والكثير من نقاط القوة فيه.

- **التفسير وعلوم المقاصد والمؤثّرات الخارجيّة**

ففي التفسير يمكن أن نجد الإسرائيليّات كأخطر نقطة ضعف أصابت هذا العلم في بداية تدوينه وتغلغلت فيه وانعكست على كثير من علوم القرآن الكريم التي بقيت متداولة منذ عصر التدوين. وصحيح أنّ أسلافنا قد بذلوا جهودًا جبّارة لمقاومتها، لكنّ بعضها قد تمكن من أن يترك بعض الآثار السلبيّة ولا شك. وفي الحديث يمكن أن نكتشف أحاديث الموضوعات المدسوسة التي فرّقت كلمة الأمّة حول ما أفلت منها من مقاييس وضوابط علماء الحديث الدقيقة في الأسانيد وفي المتون. وفي بعض القواعد الأصوليّة والأحكام الفقهيّة يمكن أن نجد بعض آثار من شرائع الإصر والأغلال التي فرضها الله على من سبقنا وجاء ديننا لنسخها واستبدال شرعة التخفيف والرحمة بها. كل ذلك ليستمر أهل العلم من العلماء الربانيّين في أداء مهامهم، ولتستمر حالة الاستنفار والرصد في أوساط أهل الذكر لئلا يدس على الإسلام ما ليس منه، وليحافظ على نقاء الرسالة وصفائها حتى يظهر الهدى ودين الحق على الدين كلّه، وليتم التفاعل الدائم المستمر بين القرآن والكون والإنسان حتى يصبح الكون ـ كلُّه ـ بيتًا آمنًا للناس كافة، وتسود القيم المشتركة من الهدى والحق والأمانة في العالم كلّه.

إنَّ من خصائص هذه الشريعة أن يزدوج فيها العقل والسمع ويصطحب فيها الرأي والشرع فتأخذ من كل منهما. ومن الرجوع إليهما مصطحبين سواء السبيل. فالاجتهاد

والتجديد والإصلاح ومقاومة البدع ليست بحالات استثنائيّة يرجع إليها عند الحاجة، بل هي حالات أساسيّة خوطبت الأمّة بها في اللحظة ذاتها التي خوطبت بها بالوحي. وهذا أمر في غاية الأهميّة لا بد من التنبّه له لتجاوز ذلك الخطأ الذي هيمن على عقولنا فترات طويلة، وهو أنّ الاجتهاد إنّما يُلجأ إليه عندما لا يجد الفقيه نصًّا في الكتاب والسنّة على حكم الواقعة أو النازلة، وهذا نفسه فيه ما فيه، وكأن النظر في السنّة باعتبارها المصدر المبيِّن والموضح والتطبيقيّ لا يحتاج إلى اجتهاد!!

أين مكمن الخطر على فهم الإسلام الآن؟!

المثاقفة أو التثاقف أو التداخل المعرفيّ والثقافيّ، كل هذه الأمور ـ بقطع النظر عن التسميات ـ أمور من الطبيعيّ حدوثها بين الأمم والشعوب، فالأرض واحدة، جعلها الله بيتًا واسعًا ممتدًا للأسرة البشريّة، والأسرة البشريّة واحدة ممتدة كذلك، واختلافات طبائع الأرض ومناخها مثل اختلاف الألسن والألوان في البشر، لتعرف كل مجموعة من البشر ديارها، وتبني فيها من العمران ما يناسب طبيعتها ويلبي احتياجاتها، باعتبارها دارًا لتلك المجموعة من البشر لا تمتاز بشيء على غيرها إلا بذلك. وقد منحت القداسة لأرض واضحة المعالم محدودة، لحِكَم قد نعالجها في دراسة أخرى من دراساتنا. وأضفيت صفة التحريم على بقعة مباركة أخرى لحِكَم وأسباب كثيرة ـ كذلك ـ لعل منها تقديم نموذج للبشريّة لما ينبغي أن تكون عليه ديارها من أمن وطمأنينة تسمح بإقامة عمران لا يخالطه الفساد في الأرض.

فلا غرابة ـ بعد ذلك ـ أن يقع التداخل بين الأفكار والمعارف والثقافات والحضارات في مراحل التاريخ المختلفة. فإقامة الحدود عمليّة وهميّة يقدرها الإنسان ليميّز داره عن دار سواه، وليتمتّع بمشاعر الخصوصيّة، ويلبي نزعة التملُّك، ويرى ثمار جهوده في حيّز محدود، ويدفع الآخرين إلى أن يفعلوا مثل ما فعل، ويحققوا من العمران في ديارهم مثل ما حقق.

وفي هذا الفصل الذي عالجنا فيه بعض مظاهر التداخل التي حدثت بين تراثنا

الإسلاميّ وتراث أهل الكتاب، خاصَّة التراث اليهوديّ، فإنّنا لا نندّد بطبيعة الانفتاح؛ لأن النسق الإسلاميّ نسق منفتح بطبيعته، لكنّنا تمنّينا على الأمّة وما زلنا نتمنّى أن يتم الانفتاح بشروطه وضوابطه وقواعده، وبعد أن تبني الأمّة مناهجها المعرفيّة، ونماذجها. وفرق بين أن يتم التداخل والتثاقف بإرادة الأمّة، وبين أن يتم بإرادة أخرى من أمَّة ترغب بتحقيق اختراق، لما تظنّه في صالح علو نموذجها، وتحويلها إلى مرجعيَّة بذلك الاختراق للآخرين. فهذا يشبه الجهود التنصيريّة التي أعتبرها في هذه الظروف الحرجة التي يمر بها المسلمون أشبه بالإكراه المقنَّع على مغادرة الإسلام إلى النصرانيّة: فالفقر والجهل والمرض والأميّة والتخلف وجور السلطان، وشيوع الفرديّة، وتكاثر هذه الأمور، تدمّر الإرادة لدى الإنسان تدميرًا، أمّا الإكراه المألوف فإنّه لا يقتلع الإرادة، أو يدمّرها، بل يفرض عليها الكمون والانزواء لتظهر أقوى مما كانت بعد زوال وسائل الإكراه الملجئ.

ولا شك أن اليهود لا اهتمام لديهم، لا في القديم ولا في الحديث بالدعوة إلى ديانتهم؛ فهم يدركون ـ تمامًا ـ قوميّة اليهوديّة وانحصارها في بني إسرائيل بل على العكس من ذلك أنّهم يضنُّون بها على سواهم، ولا يرون سواهم أهلاً لحمل هذه الديانة، فلم تكن بينهم وبين المسلمين مشكلة تبشير باليهوديّة، أو محاولات استقطاب لمسلمين ليصبحوا يهودًا؛ فهم حريصون على انحصار اليهوديّة بقومهم ﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦]، ﴿ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

لكنّ لديهم أمورًا أخرى قد لا تقل خطورة عن التهويد لو مارسوه، وهي ادّعاؤهم العلم في كل شيء، وأنّ البشر كل البشر عالة على علومهم قديمًا وحديثًا. وهم إذا ما رأوا عند سواهم علمًا بشيء فإنّهم لن يتردّدوا بنسبه إليهم إن كان فيه خير، وإن كان فيه شيء آخر فسرعان ما يتنصَّلون منه، ويعتبرون عناصر النقص فيه إنّما دخلت إليه؛ لأنّه لم يرجع إليهم فيه.

وحين بعث الله ـ تبارك وتعالى ـ خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ من غير بني إسرائيل، وإن كان ﷺ من بني إسماعيل بن إبراهيم، وذلك يعني أن إسحاق عمُّه، وبنى إسحاق أبناء عمومته، لم يكن ذلك كافيًا لإرضاء كبريائهم. فتنكروا له وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وأقنعوا أنفسهم أنّه ﷺ لم يأتِ بجديد، وأنّه تتلمذ على اليهوديّة وتنكّر لها، أو تمرد عليها، ولذلك فقد وضعوا لأنفسهم مقياسًا عجيبًا: ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١] فما دام رسول الله قد أخذ عنّا ـ بزعمهم ـ فإن جاءكم بشيء مماثل ـ تمامًا ـ لما عندكم فاقبلوه، أما إذا جاءكم بما يخالف ما لديكم فاحذروا. وما دامت تلك قناعتهم ورأيهم في الرسالة وفي الرسول ـ إذن ـ فلا بد من مقاومة أيّة خصائص أو مزايا يمكن أن تثبت غير قناعاتهم التي بلغوها في الرسالة وحاملها عليه الصلاة والسلام.